التعاون والمودة

للأستاذ عبد اللطيف عامر

تحدثنا فى العدد السابق عن الجهود التى بذلها " روبرت أوين " لتحسين حالة العمال ، وتحدثنا عن مقدار النجاح الذى ناله فى خطواته الأولى. ويسرنا أن نواصل البحث فقد كان للنتائج الباهرة التى حصل عليها فى مصنعه أثر كبير تحدث به الناس وأذاعوه فى طول البلاد وعرضها ، وأصبحت بذلك " نيولانارك " كعبة الباحثين الاجتماعيين وأصحاب المصانع الأخرى الذين توافدوا على زيارتها من كل مكان للدراسة والاقتباس ..

بل إن هذا النجاح الذى أحرزه "روبرت أوين" دعاه هو نفسه إلى أن يتوسع فى نظرته إلى امكان زيادة التحسين فى حالة المجتمع ، والى تكوين فكرة بناها على أساس اشتراك لفيف من العمال يتراوح عددهم بين ٥٠٠ و ٣٠٠٠ يعيشون عيشة مشتركة فى مستعمرة واحدة ، ويخصص لهم بناء واحد على شكل مربع مقسم الى مساكن مستقلة ، وبه مطبخ واحد ومطعم واحد للجميع ، ويخصص لكل عائلة مسكن مستقل من تلك المساكن ، وعلى كل عائلة أن تربى أطفالها الى سن الثالثة ثم يعهد بتربيتهم بعد ذلك الى المجتمع ، وعلى الوالدين الاشراف على أطفالهما فى أوقات الطعام فقط . وكان من رأيه أن يكون ما ينتج من العمل من دخل مشاعا بين الجميع ، وكان من آمال " أوين " أن يتمكن من اعطاء خير فرصة للتعليم ، وأن يجمع فى مستعمراته هذه بين مزايا الريف والحضر ، وأن يقضى على مساوئ العمل فى المصانع ، وأن يربط هذه المستعمرات بعضها ببعض بالعشرات ثم بالمئات ثم بالألوف حتى يصبح العالم كله مجموعة ذات مصالح مشتركة موحدة .

وقد بدئ فعلا فى عام ١٨٢٥ بإخراج فكرة أوين هذه الى حيز الوجود تحت إشراف أحد اتباع أوين واسمه " ابرام كومب " واختير لها " أور بستون " بالقرب من "جلاسجو" ، إلا أن التجربة كانت فاشلة على طول الخط اذ تغلبت المنفعة الذاتية وانتشر الكسل بين أفراد المستعمرة ، وعم بينهم الإسراف ، وتعودوا القذارة ، كما ثبت بالتجربة أن المطبخ أو المطعم العام للجميع عمل غير ناجح ، وقيل إن الطهى المنزلى أحسن وأرخص . ولم تقو هذه المستعمرة على البقاء أكثر من سنتين أى أن عمرها انتهى عام ١٨٢٧ .

وقد حاول أوين محاولة أخرى فى أمريكا فى بلدة " نيوهارمونى " فى مقاطعة "انديانا" فاشترى عام ١٨٢٤ (٢٠,٠٠٠ فدان) وذهب بنفسه إلى أمريكا وخطب عقب وصوله فى مجلس الجمعية الوطنية "National House of Representatives" مبينا القواعد التى سيبنى عليها مشروعه ، وكان الفشل نصيب هذه المحاولة كما كان نصيب اختها فى انجلترا .

عاد أوين بعد ذلك إلى انجلترا ليقوم بمحاولة من نوع جديد، فقد وجد أن المحل المنزلى الذى افتتحه فى نيولانارك صادف نجاحا كبيرا ، وأوحى اليه ذلك النجاح أن يبنى نظريته الجديدة على مبدأ الاستغناء عن الوسطاء فى تبادل السلع ، ولكى يتم له هذا لم يكتف بوضع الأساس لانتشار المحلات المنزلية بل رأى أيضا أن يغير من نظام التبادل وأن يضع مقياسا جديدا للقيمة هو " العمل " ، بجعل أساس العمل اليومى عشر ساعات ، وأجرة الساعة من العمل ٢٥ مليما، فالكرسى مثلا تقاس قيمته بالساعات التى صرفت فى صناعته مضافا اليها قيمة المادة الخام . وبدأ فعلا تنفيذ هذه الفكرة فافتتح فى ١٧ سبتمبر من عام ١٨٣٢ سوقا للتبادل بالعمل أسماها "The National Labour Exchange" وقد لاقت هذه السوق فى بادئ الأمر إقبالا ثم مالبثت ان قامت فى وجهها العراقيل والصعوبات الكثيرة فعدل عنها .

ولم تكن جهود روبرت أوين قاصرة على هذه المحاولات المتعددة بل كان الى جانب ذلك من أعلام الخطابة والكتابة فى عصره ، فقد كان ينظر إلى العمال فى انجلترا نظرة لاتزيد على نظرة الأثرياء لحيواناتهم الأليفة ، وكان العمال مبعدين كل البعد عن أى نوع من الاشتراك فى شئون الدولة أو التدخل فيها ، وكانوا محرومين من كل الحقوق السياسية وما يجب أن يتمتع به أفراد الأمة من حرية .

ويقول بعض الباحثين فى تعليل ذلك إن هذه الحالة التى كان عليها العمال هى أثر من آثار عهد الإقطاع فى القرون الوسطى ، ويقول آخرون إنها نتيجة لتجارة الرقيق التى كانت موجودة فى انجلترا ، والتى أثرى بسببها كثير من الانجليز .

وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت إن الطبقة العاملة إنما خلقت للعمل اليدوى فقط وهى لاتصلح بطبيعتها للتعليم ، وإن تقدم المملكة لايكون الا بتشجيع الصناعة والتجارة و إعطاء الحرية التامة لأصحاب المصانع والتجار للحصول على الأرباح .

ومن سوء الحظ أن هذه الاعتقادات الخاطئة وجدت مايبررها فى نظر الطبقة المتعلمة من كتابات علماء الاقتصاد ، وكان الاقتصاد لا يزال علما حديثا له بهجته وجاذبيته فى نظر الجمهور الذى كان يقبل بشغف على نظريات " آدم سمث " و " توماس " و " مالثس " و " ريكاردو " .

وكان العمال كلما طالبوا الحكومة بأن تتداخل لحمايتهم و إنقاذهم من أصحاب رءوس الأموال وجدوا لديها من نظريات آدم سمث ردا على هذه المطالب ، و كان هذا الرد يتلخص فى أنها عاجزة عن التدخل لان كل تدخل من جانبها يتعارض مع السير الطبيعى للقوانين الاقتصادية ولا بد أن ينتج عنه ازدياد الضرر إن عاجلا أو آجلا .

والذى يقرأ كتاب آدم سمث الذى أسماه ثروة الأمم "The Wealth of Nations" — وهو أول ما ألف فى علم الاقتصاد عام ١٧٧٦ — يراه يقول " إن كل نزاع بين العمال والرأسماليين لا مبرر له على الاطلاق ، لأن الجميع مسوقون بيد خفية تدفعهم لخير المجتمع عن طريق العمل لمصلحتهم الشخصية ، كما أن من النظريات الاقتصادية التى ظهرت فى ذلك الوقت نظرية مالثس فى السكان ، ونظرية قانون الأجور الحديدى ، ونظرية تخصص الأجور "Wage Fund" وكلها نظريات تلتقى عند نقطة واحدة هى أن العمال لا أمل لهم فى تحسين أجورهم أو رفع مستواهم .

ولذلك فإن مهمة المصلحين الاجتماعيين وعلى رأسهم روبرت أوين كانت مهمة شاقة فقد كان عليهم أن يدحضوا هذه النظريات الاقتصادية الخاطئة و يظهروا مافيها من سفسطة ويقنعوا الجمهور والحكومة بصدق نظريتهم القائلة بأن سعادة المجتمع يجب أن تكون مفضلة على تكوين الثروات الخاصة ، وأن النزاع القائم بين ملاك الأرض وأصحاب رءوس الأموال والعمال بسبب الانقلاب الصناعى لا تبرره الأوضاع الطبيعية للأمور ، وأن الحرية التى يتمتع بها الأفراد يجب أن توجه الى التآزر والتعاون مع بعضهم البعض لا إلى التطاحن والتنافس .

وقد كان لروبرت أوين كتابات قيمة فى هذا الصدد ، ومن أهم كتبه كتاب مقسم إلى أربعة موضوعات أسماه "نظام جديد للمجتمع "A New View of Society" يتناول فيه وضع أساس لما يجب أن يكون عليه خلق المجتمع ، كما ناضل نضالا كبيرا فى الدفاع عن حقوق العمال ، وله كتابات متعددة تتناول وجوب صدور تشريع للعمل يمنع تشغيل الاحداث وتنظيم ساعات العمل ووضع نظام حكومى للرقابة على المصانع .

هذه هى أهم أعمال روبرت أوين وتعاليمه ، وقد كان لها الفضل كل الفضل فى تكوين رأى جديد للمجتمع ينطوى على عدل و إنصاف لحقوق الطبقة العاملة المهضومة الحقوق ، كما أن هـــذه التعاليم والأعمال ألقت الضوء على مايمكن للعمال أن يكتسبوه من وراء جهودهم المشتركة ، ولذا فقد أجمع الباحثون فى الشئون التعاونية على تسميته " أبا التعاون "

أما المعاصرون لروبرت أوين من المصلحين الاجتماعيين فنذكر منهم " وليم تومسون " وكان من الملاك الإيرلنديين فى محافظة كورك ، وكانت كتاباته من أحسن مانشر عن التعاون

فى ذلك الوقت ، فقد نشر له فى عام ١٨٢٤ " بحث فى توزيع الثروة على المبادئ الأكثر صلاحية لسعادة المجتمع " ، وفى عام ١٨٢٧ "بحث فى مكافأة العمل أو كيف يحتفظ للعامل بكل الناتج من جهوده " وفى عام ١٨٣٠ نشرت له " إرشادات علمية لتأسيس الجماعات الاقتصادية " .

ويتبين من كتابات تومسون أنه كان من المتتبعين لكل النظريات الاقتصادية التى ظهرت فى ذلك الوقت ، وكان رأيه من رأى ريكاردو العالم الاقتصادى فى أن رأس المال ماهو إلا عمل مدخر ، وأن أثمان السلع فى السوق تحدد بمقدار العمل الذى صرف فى إنتاجها . وقد استخرج تومسون من هذه النظريات أن العمال وحدهم هم العامل الوحيد فى الإنتاج ، ولذلك يجب أن يعود عليهم وحدهم كل مايأتى به الإنتاج من ثروة .

وكان يقول إن ملاك الأراضى وأصحاب المصانع والآلات بحكم تملكهم ، ووضع أيديهم عليها ، يتحكمون فى العمال ، فبدلا من أن يؤجروا لهم ما فى حوزتهم من ثروة ليقوم العمال بعملية الإنتاج لأنفسهم ولحسابهم فإنهم يرغمون العمال على قبول العمل بأجور لاتتعدى الحد اللازم للقوت الضرورى ، ويستولون هم بغير وجه حق على كل فائض أو ربح من الإنتاج ، وأمام هذا التحكم وهذه السيطرة من جانبهم فليس أمام العمال غير القبول أو الموت جوعا .

وكانت كتاباته فى التعاون تؤكد أن لا سبيل أمام العمال للخلاص من هذه الحالة إلا بالتعاون وكان يرى أن هذا التعاون بين العمال لا يستدعى وجود أموال ضخمة كما كان يقول روبرت أوين ، وكان يرى أن تفكير العمال فى إحداث الثورات لا يعود عليهم إلا بالضرر ، وأن الواجب على المتعاونين أن يطالبوا الحكومات بحماية المنشآت التعاونية .

ومن المعاصرين لروبرت أوين الدكتور " وليم كنج " وهو من كبار التعاونيين فى ذلك الوقت ، وكان دكتورا مارس صناعة الطب أربعين سنة فى بريتون بانجلترا ، وكان من أهم جهوده إصدار مجلة شهرية للتعاون فى عام ١٨٢٨ داومت على الظهور ٢٨ شهرا وكان يسميها "The Co-Operator" .

وقد أودع وليم كنج فى هذه المجلة آراءه القيمة فى التعاون ، ويتبين مما كتبه أنه كان من المؤمنين بأن المظهر الصحيح للتعاون إنما يقوم على أساس المستعمرات ذات الكفاية

والإدارة الذاتية "Self Supporting and Self Governing Communities" وكان يضع همه الأول فى إرشاد العمال إلى كيفية البدء فى العمل على إيجاد هذه المستعمرات بالرغم من افتقارهم إلى المال فكان يقول :

" يتحقق الجمال الفاتن فى التعاون بلا حاجة إلى رأس مال ، فالرجل لا يحتاج فى تعاونه إلا إلى أجره اليومى وزميل أمين ، فاذا وجد ثالثا اطمأنوا جميعا إلى أن الحبل المفتول ثلاث مرات لا يسهل قطعه ، وفى وسعهم أن يكتبوا كل أسبوع بمبلغ زهيد ينفعهم وقت المرض أو البطالة ، وفى وسعهم أن يشتروا لوازمهم دفعة واحدة ليحصلوا على تخفيض فى الأسعار فيضموا ما وفروه فى هذه الأسعار إلى ما ادخروه ، فاذا اتفق فريق من العمال على اتباع هذه المبادئ زادت قوتهم بازدياد رأس مالهم و يصبح فى مقدورهم أن يتوسعوا فى خدمة أنفسهم ، كأن يفتحوا دكانا يوزد لهم كل مايلزمهم . وينافس هذا الدكان المحلات التجارية الأخرى فى البيع للجمهور ، وكلما زادت مبيعات الدكان زاد ربحه وكبر رأس ماله ، ومتى كبر رأس المال أصبح فى الإمكان إيجاد عمل لأفراد المجتمع فيما هو أجدى عليهم بالمنفعة . وإذا أقبل الجمهور على طلب سلفة من السلع فنى الوسع أن يقوم الأعضاء بصناعة هذه السلفة ، و يسيروا فى مراقى التدرج هذه إلى أن يصبحوا ملاكا للأرض أو مستأجرين لها . ولا يفوتنا أن مثل هذه الجمعية قبل أن تصل إلى هذه الدرجة من النمو والارتقاء تكون قد تمكنت من تعليم أولاد الأعضاء وتثقيفهم أحسن ثقافة " .

هذا مثل مما كتبه "وليم كنج" فى مجلته "التعاون" . وقد تناول فى أعدادها الأخيرة شؤون التعاون بالنسبة لحياة المجتمع عامة ، فكان يقول لأتباع نظرية " مالسن " إن سبب الفقر ليس فى زيادة عدد السكان على الحد المناسب ، بل هو فى زيادة الانتاج على الحد المطلوب بسبب ما يأتيه الرأسماليون من خطأ فى توجيه الإنتاج وعدم إدراكهم لمقدار الطلب على السلع . وكان يحاجهم فى هذا ، ويدلل على أن علاج الفقر لا يكون بالحث على الإقلال من النسل أو انتظار المجاعات والأوبئة والحروب التى تفتك بالسكان ، و إنما يكون عن طريق التنظيم التعاونى كى يصبح العمال جميعا ممولين فتنمو عندهم ملكة الانتاج على قدر الطلب .

من هذه التعاليم وهذه الكتابات انتشرت الفكرة التعاونية بين العمال وكثر عدد أتباع أوين وتومسون وكنج ، وتكونت لدى الرأى العام أفكار جديدة غير التى كونها علم الاقتصاد

الأول ، وتنبهت الأذهان إلى وجوب العمل وبذل الجهود لإصلاح حالة العمال، وقد تعددت المحاولات لإنشاء الهيئات التعاونية بمختلف الأوضاع والصور .

وبلغ عدد المؤسسات التعاونية فى عام ١٨٣٠ مائتين. منها ما كان يطلق عليه اسم حوانيت الاتحاد " Union Shops " ، وقد عقد فى هذه السنة وفى السنتين التاليتين مؤتمر تعاونى للنظر فى شؤون التعاون وما يهم التعاونيين فى مختلف أنحاء البلاد .

ومما يؤسف له أن هذه المحاولات جميعها لم يتوفر لها النجاح ، فلم تكن الفكرة التعاونية قد نضجت أو كمل نموها واستكملت أسباب نجاحها . واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت التجربة الخالدة فى بلدة " روتشديل " التى قام بها فريق من الصناع فى هذه البلدة ، وكانت جمعية روتشديل الجمعية التعاونية الاستهلاكية الأولى ، والحجر الأساسى لنظام التعاون الاستهلاكى ، والجمعية التى يشار إليها على الدوام كلما ذكر التعاون وجمعياته أو استعرض تاريخ الحركة التعاونية ونظامها أو أشيد بمبادئ تلك الحركة وأثرها الاقتصادى والاجتماعى ما

عبد اللطيف عامر

تورية لطيفة

نزل الشاعر ابن هرمة عند قوم أطالوا معه المذاكرة فى أمور القرآن والدين ولكنهم لم يطعموه . فانصرف عنهم وهو يقول :

قد حفظوا القرآن واستظهروا ما فيه إلا سورة المائدة

وقال يصف جبته :

دب فيها البلى فدقت ورقت وهى تقرا اذا السماء انشقت